

عبد العليم إسماعيل

في ديوانه (أبجدية عشق آت)

حين كشف الكاتب المفكر الكبير عباس محمود العقاد عن تفرد ابن الرومي في شاعريته بعد أن تجاهله النقاد القدامى والمحدثون زمناً طويلاً كان من أسباب هذا التفرد في رأي العقاد أن حياة هذا الشاعر العبقري هي شعره وشعره هو حياته فالصدق هو سمة المبدع الأصيل الذي لا يقلد أحداً ولا يستطيع أحد أن يقلده ويقول الشاعر الأسباني العظيم لوركا (إن الشعر والصدق توأمان لا ينفصلان) فالشاعر الحق ينفع ولا يفتعل ، وهو يصدر عن نفسه فالشعر ذاتي في مصدره وإن كان يحتوي الوجود كله ويطلق بجنابيه في فضاء الكون وفضاء القصيدة ومن ثم يجمع من أوتي موهبة وخبرة شعرية بين الوعي الذاتي والوعي الجماعي إذ ينطلق من أدق ذرة في تراب وطنه إلى أبعد نجم في سماء العالم ويصور ما يعنيه من آلام وما يحييشه وجданه من أحلام ويمزج بين ذاته وبين جموع الناس وهذه السمة المميزة لفن العربية الأول وهو الشعر في كل زمان ومكان والتي عبر عنها العقاد ولوركا وسمة الصدق هي التي أوحىت إلى العلامة أحمد أمين برأيه الذي يتسم بالحدة في الشعر العربي قبل الإسلام فنشر في الأربعينات من القرن الماضي على صفحات مجلة الثقافة التي كان يصدرها ويرأس تحريرها سلسلة مقالات بعنوان (جنایة الشعر الجاهلي على الأدب العربي) وتصدى له الدكتور زكي مبارك بمقالات تحت عنوان (جنایة أحمد أمين على الأدب العربي) وقد علل أحمد أمين رأيه بما عرف عن كثير من شعراء الجاهلية من أنهم اتخذوا الشعر سبيلاً للتكسب والارتقاء فاصطنعوا اصطناعاً ، ولم ينصتوا إلى دقات قلوبهم فيعبروا عن مشاعرهم أو مشاعر من يعيشون بين ظهرانيهم ، وإنما طرقوا أبواب سراة قومهم لمدحهم ابتغاء عطائهم .

وهو رأي صحيح من الجانب النظري وهو ما ينبغي أن يتوافر في القصيدة من صدق نفسي وواقعي وفني ولكنه خطأ أو مبالغ فيه من الجانب التطبيقي فالشعراء الصغار قبل الإسلام كانوا هم الأصدق من سواهم في التعبير

والتصوير . بل إن زهير بن أبي سلمى الذي اشتهر بمدائنه في الحارث بن عوف وهرم بن سنان كان صادقاً في عاطفته ونزعته وهي تعجبه هذين الرجلين لأنهما أصلحاً بين قبيلتي عبس وذبيان . وليس العدل أن نصم كل قصائد شاعر مادح مثل الأعشى أو حسان بن ثابت في جاهليته بالكتب فقد كان كل منهما لسان قبيلته الذي يصدق حيناً ويبالغ في مدحها ونرم أدعائها أحياناً متلماً تفعل في العصر الحالي وسائل الإعلام ، ولعل الأستاذ أحمد أمين كان متأثراً بالآيات القرآنية {وَالشُّعْرَاءُ يَتَبَاهُمُ الْقَوْمُونَ * اللَّمْ تَرَ أَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ * وَأَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} الشعراء (٢٢٦-٢٢٤) ولم ينظر إلى الآيات التي استثنى المؤمنين من هؤلاء الشعراء وهم المخضرون الذين عاشوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَاتَّصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَتَقَلَّبُونَ} الشعراء (٢٢٧) وقد هجا ابن الرومي الشعراء الذين لا يصدق قولهم فعلمهم ويخلعون على مodoxهم من الصفات ما هم عارون منها .

يقولون ما لا يفعلون مذمة من الله مذموم بها الشعراء
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون ما لا يفعل الأمراء

ساخت لي هذه الخواطر حين قرأت ديوان (أبجدية عشق آت) للشاعر عبد العليم إسماعيل وكانت متابعاً من قبل لقصائده المنشورة على صفحات الجرائد والمجلات وتلك التي يلقاها في ندوة جماعة الجيل الجديد الأدبية وغيرها من الندوات والأمسيات الشعرية فأدركت أن حياته هي شعره وشعره هو حياته .

فالصدق هو الملمح الأساسي في إبداعه ، لا يتكلف أو يصطنع وكأنه نذر نفسه للبؤح والإفشاء ونقل تجربته إلى قارئه كي يشاركه همومه وأحلامه ونزف فواده مما يذكرنا بقول الشاعر الرومانسي الفرنسي لامرتين (كنت وما زلت أغنى كما يغدر العصفور ، كخرير الماء ، كتنفس الإنسان) فشعر عبد العليم إسماعيل مرآة تعكس صفاء روحه ونقائه سريرته وشفافيته وهو فيض ذاكرته المضيئة بالصور المستحدثة من الواقع الممزوج بمخيلته الخصبة فهو في بعض قصائده كالصقر الجارح لأنه يصدر عن نفس غاضبة رافضة لما يضعه المجتمع من

والوهج المتقد بصدرى

حبك لا أنفيه

حتى لو كنت ببحرك

ربانا تاهت منه مراسيمه

وهو ينادى حبيبته أن تكون له مرفأً آمان يقيه الغرق في الطوفان ، وواحة

ترله وتروي ينابيعها ظمآن الحرمان :

يأتيني خبر

أن الأرض سياتتها الجدب

مصالح وجعي

كي تتبت بين يديك سنابل قمح

وبيوت لا تعرف وقع الأحزان

يستدى الخوف بالشاعر فيئن وتلوح له أشباح الطغاة فيصرخ ويراوده الموت
فيجف ، ويختبئ إلى الحياة فتخاطط في عينه الرؤى ، ولا يجد إلا الشعر أنيساً يبيشه
همه في لياليه المسهدة بعد أن جفته بلاده وأدارت له ظهر المجن فاكتوى بنار
عشقاً ولم يتنزق قطرة من نبع نعيمها وتورقه الأسئلة : لماذا لا يمنح الوطن
شاديه المحب عشاً هادئاً دافئاً؟ لماذا كلما أراد أن يعانق السماء بجناحيه تضر بهما
الرياح العاصفة؟ لماذا؟ ولكن هذا الوطن يعني مثله وهو مثخن بالجراح
فكيف يكون المريض آسيماً؟

لي ضعف ما للشمس من وهج

وف يحضني السماء

فكيف أسأل عن بلاد من شرود لا تفيق؟

يا ذاكر عهد البداية

كي ترى ألق النهاية
بين صمتك والحديث تباعدت
كل الرؤى

وتروع الشاعر مأساة القدس وعجز الدول العربية عن إنقاذ مدينة السلام من
براثن قتلة الأنبياء والأطفال ، فما زال الفلسطينيون تسفك دمائهم بأعنى الأسلحة
التي زودت بها الولايات المتحدة حلفاءها الصهيونيين وكان عبد العليم إسماعيل
يتنزف دماً وهو يكتب بكتابية (على حافة الواقع القدس) ناعياً على العرب
إهارهم مجد تاريخهم ، مكرراً كلمة الصدق الذي يفتقدونه فطالما أحزنه هذا فقد
وهو يخاطب هذا التاريخ ملائعاً فيقول :

فيما تارينا المكتوب في الهمات
لا ننس لنا مشهد

وخذ منا دموعاً تحرق الأكباد لا تهمد
لنا وطن على أيصارنا يذبح
فنصنع من أمانينا أقصاص
نغيتها على نزف الدم المجهد

ويرجم أطفال الحجارة وجوه المعذبين الغاصبين ، ويراهم الشاعر وهم
يرجمون أيضاً الأشقاء الأعداء لأنهم تخاذلوا من فرط جبنهم وهوانهم وحرصهم
على كراسى الحكم ألا ساء ما يحكمون ، أولئك الذين اشتروا الضلال بالهوى
فخسروا تجارتهم ولم يربحوا إلى الخزي والعار :

قرأنا كل ماضينا على مهل
وحين أتى له ذكر نسيناه
طرينا من أحديث تمنينا
بأوطان محررة ستائينا

ولا طفل إذا فلنا صمتا يصدقنا
فيأخذ من شرائق خوفنا حجرا
فيقذفنا

ويكرر الشاعر كلمة الخوف ثلاث مرات لأن داء العرب في العصر الحديث
ولكي يؤكد أن الشجاعة هي طريق الخلاص كما دل تارixinنا المجيد ، وهو كثيرا
ما يعزف على وتر الزمن الذي يمضي علينا ثم يمضي بنا كما يقول شاعر قديم ،
ومن ثم يكرر كلمة الوقت للدلالة على شدة وقوعه في نفسه :
إني مأخوذ بالوقت

وفي صحراء الروح يسابقني الحزن
أراني مغتربا

وجدير بي وجع قيدني
ظلام في ذكراه

أسقط في بئر
حسبي كلمات خرجت
من بين ثيابه

فالإحساس بالاغتراب ومرارة الفقد يهيمنان على هذه النفس الشاعرة
ويشكّلان عالمها وكأن عبد العليم إسماعيل ملاح ولا منجا له من الغرق وليس له
من منفذ إلا اعتماده بسماء الشعر .

ذلك هي رؤى شاعرنا الذي فرض نفسه بقوة على ساحة الإبداع وما زال
يوافق طريقه رغم الداء والأداء حسب تعبير أبي القاسم الشابي .
أما لغته وأسلوب أدائه لمعانيه تركيبا للألفاظ والجمل وتشكيلا للصور ، فهما
بدلان على قراءة واعية للتراث العربي ، ومن ثم كان طبيعيا أن يستنقى ماء شعره
من المعين القرآني مثل وصفه مصر وهو يخاطبها :

تجري أسفل أقدامك أنهارا
ترويك ولا تروينا

فالعبارة الأولى على غرار الآية (جنات تجري من تحتها الأنهر) وكذلك
العبارة تسكن جنات لا تشقي فيها أبدا) فهي منوال اللغة القرآنية ويستعمل الشاعر
كلمة الرقيق التي وردت في سورة الكهف في قول :
تغلبنا شقوتنا

تبعد في النية حزاني
لا أنت بحكمتك الكاذبة ترانا
أو ندخل نحن بكهف
فيكون الشاهد والمشهود رقيما

وعلى نسق الآية (بتبت يدا أبي لهب وتب) يقول :
لا رحم الله الوهن الكامن
في أقدام عروش الذل

بتبت أيدي المرتجمين
أمام السارق أمسى

لا وجه لكم في التاريخ

والسطر الثاني من المقطع الآتي يظهر تأثره بالقرآن الكريم وهو قوله :
ذقنا بعض أمانينا

بشرنا بخلود في النار
تقنى كل الأشياء نفاقا
فنغny للفهر

كما يقتبس آية (واستوى على العرش) في قوله :

فَاصْلَحْ وَجْهِي

كما في عبد العليم إسماعيل من نبع الأقوال المأثورة في التراث العربي الإسلامي مثل مقوله الخليفة العباسي وهو ينظر إلى غيمة تمر في الأفق (أمطري حيث شنتي قسوف يجتني خراجي) إذ يقول الشاعر :

سیری اُنی شئت

کل خراجک سوف یو اتینی

من خلف الغيم

ويضفي لغته التراثية بالتعبيرات الحديثة أسلوباً وتصويراً مثل : (أتوسط تاريخي - منح النفس براعتها - أزرع للوقت سياجاً - يحمي أزهاري من بطل ورقى بيتصدّني حقداً - أدخلتك صرحي المائي بلا بلل - قلق هو الضوء المصاحب رحلة - يمسح دمع الليل خواء بواديـنا - ويميل إلينا بعض سراب لم نالـه - فنقرأ كل متون الخوف ولا ينكسر الـريح) .

وبعد فهذا شاعر ينضح بالصدق والأصالة ويحجب آفاق التجديد والحداثة ،
ولا يشوب قصائده إلى هنوات في الصياغة مثل تشبثه بالقافية الواحدة في نهاية
كل مقطع في القصيدة بقصد توفير العنصر الغنائي الذي يتطلب له الأذن العربية
فيصيب في أكثر الأحيان ولا يوفق في أقلها وحسبه أنه قدم لمكتبة الشعر العربي
الحديث ديوانا ساطعا في مضامينه ، مستوفيا لكثير من شروط الإبداع في عديد
من القصائد ، مما يجعل لشعره مذاقه الخاص وتميز صوره بالجدة ، مما يؤهله
لشغل مكانة مرموقة بين شعراء الشباب من أبناء الجيل المعاصر .

أين الفدائى الذى حمل القنابل

و اسٹو ۱، بطلہ

على عرش التواريخ البعيدة

وقد وجد الشاعر في قصص الأنبياء في القرآن الكريم نبعاً فياضاً فارتوى منه موظفاً مغزاها وصورها المجازية في شعره ، ويتبين تأثيره بقصة يوسف في قصيده (تأويلات لأحلام قديمة) إذ يقول :

أرصد بعضا من أحلام

أَتَغْلِّلُ فِي وَجْهِي

وأهيم بلا هدف

ما بين ضباب الرؤية

ومدار الأيام

أقوابي الجب

ويستطرد مستخدماً رؤيا يوسف التي حدث عنها رفيقي سجنه الذي أودعته فيه زوجة وزير فرعون بعد أن راودته فأبلى أن يعصي خالقه ويخون سيده كما يوظف الشاعر من قصة يوسف رؤيا البقرات السمان للدلالة على الخصب والبقرات العاجف للدلالة على القحط :

ردونی ملکا

تأكل خبزى الطير

أنتشل الجوع

وأقيد في ظلِّي من كان السجان

بأتنى خير

أن الأرض سبأيتها الجدب